

المنهج السيميائي في النقد العربي بين التعيد النظري والواقع التطبيقي
(الإمكانية والإشكالات)

The semiotic approach in Arab criticism, between
theoretical reticence and applied reality
(Possibility and Problems)

أ. عقبة جلول بن سلطان[‡]

أ. صالح الدين ملفوف[§]

تاريخ القبول: 2021.06.10

تاريخ الاستلام: 2020.04.17

ملخص: يعدّ النقد من دوافع الإبداع الأدبي وتطوير أشكاله الفنيّة والارتقاء بمضامينه ومقاصده الفكرية والثقافية، وعبر العصور التاريخية ارتبط الأديب والأدب بالنّقد والنّقد، فلا يكاد يوجد إبداع أدبي شعرا كان أو نثرا إلا صاحبه إبداع نقدي، في متتالية دائبة وحتمية دائمة، ولهذا لا يزدهر الأدب في عصر من العصور إلا وكان النقد مرافقا له، يقيمه ويقومه ويوجهه وبفجر منه مكنوناته، ولما كانت العقول البشرية تتفاوت، والمدارك النظرية تتمايز والمقاصد الفكرية تختلف، تولد عن هذا الثراء الأدبي زخما هائلا من المناهج والنظريات النقدية، حيث تطورت من الأحكام التذوقية إلى المناهج البلاغية، إلى ظهور

[‡]جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، البريد الإلكتروني:

okba.djbs@univ-dbk.m.dz (مؤلف مرسل)

[§]جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، البريد الإلكتروني:

melfouf.2012@gmail.com

المناهج السياقية، وصولاً إلى المناهج النسقية مع ظهور البنيوية وما تولد عنها من المناهج كالسيميائية ونظرية التلقي والنصانية والتداولية. وفي هذه الورقة البحثية نتطرق إلى طرح إشكالية المنهج في القراءات النقدية ضمن إطارها النظري والتطبيقي، ونأخذ المنهج السيميائي أنموذجاً، نحاول من خلاله تحديد مفهوم هذا المصطلح النقدي وأساسه ومبادئه التي قام عليها وإسهامات النقاد العرب في ذلك، والعقبات التي تعترض سلوكه، لنخلص إلى مدى إمكانية دراسة النص الأدبي.

الكلمات المفتاحية: السيميائية، المنهج، النقد، النسقية.

Abstract: Literary criticism is one of the motivations that support literary creativity. It is also a motivation that contributes to the development of literature (content and form). This study is essential to the evolution of the art of writing. Over time, there was a link between literature and literary criticism for each literary creation there is a critical study, this clearly explains that there is never a literary evolution without a critical part. It's two notions inseparable from one another. Literary criticism assesses and evolves the art of writing because the human mind does not have a standard level; Each one how he sees, how he thinks ... This variety has paid off, the literature has evolved from one day to the next. From a simple judgment to rhetorical programs, We want by this study to pose a problematic 'critical readings in its theoretical and practical framework' and we take semiology as an example,

We are trying to define the concept of this critical term, its foundations and principles, the contributions of Arab critics and the obstacles to its behavior, in order to determine to what extent it can study the literary text.

Keywords: Semiotics; methodology; criticism; syntax.

المقدمة: ما تزال النصوص الأدبية على مر العصور مرتعا خصبا للنقاد ومجالا فسيحا تتداخل فيه الأفكار التي تسعى إلى فهمه أو إفهامه أو تسعى إلى تقييمه أو تقويمه، وكان اعتماد النقاد الأوائل بصفة كبيرة على الذوق والميولات والانطباع الخاص، ثم إصدار أحكام عامة كثيرا ما تخرج عن الموضوعية إلى الذاتية، وفي ظل اختلاف الخلفيات الإيديولوجية ظهرت عدة نظريات ومناهج وضعت مجموعة من الآليات والوسائل والأدوات للاستعانة بها على سبر أغوار الظاهرة الأدبية، ثم تطورت هذه المعارف وتأثرت بالتطور العلمي والتجريبي وأصبح النقد عبارة عن عملية وصفية للإبداع تستهدف قراءة العمل الأدبي قصد الوصول إلى جوهره، ثم ظهرت المناهج التي اعتنت بسياقات النص الخارجية كالمنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي، ثم ظهرت على أنقاضها مناهج أخرى حاولت استنتاج النص من الداخل، ورأت أن النص لا ينبغي أن يُدرس إلا من أجل ذاته، وتأثرت في ذلك بلسانيات "دي سوسير" التي تعتبر المرجعية الأساسية لهذه المناهج، فتعاملت مع النصوص معاملة علمية تشريحية، وألغت السياقات الخارجية، فنشأ المنهج البنيوي الذي انضوى تحته الشكلاونيون الروس، واهتموا بالبناء الوظيفي للقصص مع "فلاديمير بروب" ومع منظري البنيوية كـ"رومان ياكسون"، والحلقات اللغوية المختلفة التي ظهرت مطلع القرن العشرين كـ "حلقة براغ" و "حلقة كوبنهاغن" ثم مع دراسات "جيرارت جينيت" للزمن في القصص والروايات وغيرهم، وهكذا تفرعت الدراسات النقدية وتنوعت أطرها الفكرية والفلسفية، وتمايزت آلياتها وهي في جملتها لا تركز إلا على بعض الجوانب في النص، ولذلك ظهرت في أعقابها المناهج التكاملية التي حاولت الربط بين المناهج المختلفة بشكل مترابط ومتكامل، وتناوله بطريقة تتنوع فيها الحقول الدراسية المختلفة.

وفي خضم هذا الزخم الهائل من المناهج، التي مبناها في الأساس جميعا على رؤى فكرية وفلسفية، يجد الدارس للأدب نفسه في حيرة ودهشة، من عدة

مستويات، من أهمها -حسب التجربة الشخصية لي ولزملائي في الأطوار الدراسية المختلفة:

1. **من جهة الفهم:** فالكثير من الدارسين لا يفهمون هذه المنهج ولا يستطيعون التعامل معها.
 2. **من جهة المصطلح:** وهذه وحدها إشكالية لا تزال المناهج النقدية - خاصة عند نقادنا العرب- تتخبط فيها.
 3. **من جهة التمييز:** بين المنهج والآلية التي تنطوي تحت المنهج.
 4. **من جهة الاختيار:** وما هو المنهج المناسب للنص المراد دراسته؟
 5. **من جهة الإمكانية:** وهل يمكن تطبيق هذه المناهج على مختلف النصوص، خصوصا منها العربية، لأن هذه المناهج إنما ظهرت في بيئة تختلف تماما عن البيئة العربية؟
 6. **من جهة التقيد والحرية:** وهل الدارس ملزم باتباع الآليات المنهجية أو له الخيار في التصرف فيه والانتقاء منها والتبديل فيها؟
 7. **من جهة الثمرة والنتيجة:** -وهذا على تسليم إمكانيته- فهل يستطيع الدارس بعد هذا كله أن يفجر الجماليات المكنونة في النصوص، ويولد منها أنواع الدلالات.
- وكثيرا ما كانت النصوص الأدبية التي تجعل كنماذج التطبيقية لدراسة هذه المناهج يتم اختيارها وانتقاؤها بعناية، ويكون ذلك على يد أساتذة متمرسين ليتم إدراجها ضمن المقررات الدراسية، وتكون النتيجة في الأخير أن هذا المنهج مناسب لهذا النص-على الأقل من الزاوية التي تمت دراستها-وهذا الانتقاء في حد ذاته مخالفة منهجية يكرس الواقع المعقد لهذه المناهج.
- من بين هذه المناهج التي أثارت جدلا واسعا، ونالت حيزا كبيرا من الدراسات الأكاديمية "المنهج السيميائي"، فقد كان ملاذا للدارسين، ومنهجها

مفضلاً عند كثير من الطلبة في أطروحاتهم، ولكنه مع ذلك جهة أخرى تعرض للنقد الشديد من النقاد، وأنه منهج يعجز عن دراسة الأدب دراسة وافية.

1. مفهوم النقد، المنهج، النسق، السيمياء: ليس المقصود من هذه الورقة البحثية دراسة هذه المفاهيم من مختلف جوانبها، فكل واحد منه موضوع بحث مستقل بذاته، إلا أننا سنحاول إبراز مفاهيمها في أسهل أشكالها تبين المفهوم اللغوي والاصطلاحي على الأقل من جانب واحد.

1.2. "النقد": بمفهومه المعجمي يدل على إبراز شيء، ومنه نقد الدرهم وذلك بأن يكشف عن حاله في جودته أو زيفه.⁽¹⁾

وأما في اصطلاح النقاد فلا شك أن المعنى اللغوي يتجلى في تحديد مفهومه، وأن فيه جانباً من تمييز الجودة والرداءة، إلا أن مفهومه أصبح واسعاً جداً تتجاذبه جملة من المفاهيم والتيارات الفكرية، وكلما أدرجناه في سياق معين أو ضمن منهج فكري تغيرت دلالاته وتباينت أهدافه تبعاً لذلك، فهو "تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامة أو إلى الشعر خاصة يبدأ بالتدقيق، أي القدرة على التمييز، ويعبر منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى، مؤصلاً على قواعد جزئية أو عامة."⁽²⁾

2.2. "المنهج": في دلالاته اللغوية يدل على الوضوح والسلوك، يقال "نهج" لي الأمر: أوضحه، وهو و"المنهج والمنهاج" الطريق.⁽³⁾

والمنهج كذلك تطور مفهومه وتغاير بتغاير وجهات النظر، ففي القديم كان بمعنى البحث أو المعرفة، ثم تطور في عصر النهضة الفكرية والأدبية فصار المعنى للمنهج هو الطريق المؤدي إلى الغرض المطلوب، أو بمعنى أوضح هو مجموعة من القواعد العامة المصنوعة من أجل الوصول إلى الحقيقة، أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون جاهلين بها، أو من أجل البرهنة عليها.⁽⁴⁾

3.2. "النسق" في أصل وضعه يدل على تتابع الشيء، يقال: "كلام نسق" إذا جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض. (5)

وقد أصبح هذا المصطلح في الدراسات الأدبية يطلق على تلك المناهج التي يعتمد الناقد فيها على بنية النص ونسقه بعيدا عن كل الملابس والسياقات الخارجية، وتقوم على جملة من المبادئ من أهمها:

- اعتبار النص وحدة مستقلة بذاتها، أو ما يسمى بأدبيّة الأدب؛
- إهمال سياق النص والناص، وهو ما يعرف بموت الكاتب، فالنص حسبها مادة مستقلة معزولة عن سياقها وعن الذات القارئة؛
- الاعتماد على مبدأ تقسيم النص إلى بنيات، ومحاولة قراءة النص في ضوء العلاقات التي تربط بين عناصره. (6)

وهذه المبادئ ظهرت مع اللسانيات البنيوية لـ "دي سوسير" لكنها ما لبثت أن انهارت وتخلّى عنها كثير من المفكرين والفلاسفة ولم يتقبلوها، ووصفوها بالمنهج اللانساني، ثم انبثقت وقامت على أنقاضها جملة من المناهج التي حاولت تجاوز سلبياتها كالسيميائية والتفكيكية والنصانية والتداولية وغيرها من المناهج. (7)

4.2. "السيمياء": أصلها ليس عربيا، وقد وجد تعريفها في بعض المراجع العربية لكنه ليس بالمفهوم المتداول في الدراسات الأدبية والنقدية؛ ففي كتاب أبجد العلوم أن "هذا الاسم يطلق على ما هو غير الحقيقي من السحر"، وأنه "لفظ عبراني معرب أصله "سيم يه" ومعناه: اسم الله" (8). وفي معجم اللغة العربية المعاصرة أنها "سحر، وإحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس" (9).

وبالرجوع إلى المعاجم الأجنبية نجدها مشتقة من الأصل اليوناني: (Sémeîon) الذي يعني علامة، و("Logos") الذي يعني خطاب، أو من (Séma)، بمعنى: علامة (Signe) (10)، وعليه فإن "السيمياء" تعني "العلامة"

كما تعني أيضا "العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات لغوية كانت، أو أيقونية، أو حركية".⁽¹¹⁾

وبعيدا عن الخوض في إشكالية تحديد هذا المصطلح، وتضارب آراء نقادنا في ترجمته، ومحاولة إيجاد أصول له في العربية، وأنه مشتق من "السمة" أم من "الوسم" بمعنى العلامة، فالذي يهمنا من هذا كله أن هذا العلم يهتم بالعلامة والأنظمة اللغوية.

غوية، ويعبر عنه بـ: "علم السيمياء" أو بصيغة المصدر الصناعي "السيمائية"⁽¹²⁾.

ثم إن هذا المصطلح يتم تداوله باستعمال مصطلحين ("sémiologie - سيميولوجيا" أو ("sémiotique) - سيميوطيقا" وقد عرفه علماء الغرب بتعريفات متنوعة، لكنها تصب في معنى واحد وهو: "العلم الذي يدرس العلامات"، وهذا ما أشار إليه كل من "تودوروف" و"قرياس" وغيرهما.

2. المنهج السيميائي: هو المنهج الذي يُعني بدراسة العلامات اللغوية وغير اللغوية في النص دراسة منتظمة، وينطلق من التركيز على العلاقة بين الدال والمدلول، وهو من هذه الوجهة لا يكاد يختلف عن المنهج البنوي سوى في أنه يهتم بالإشارات غير اللغوية التي تحيل على ما هو خارج النص بما في ذلك الدال والمدلول والمرجع، ومن هنا فالسيمائية تولي أهمية لدراسة الرموز والإشارات وأنظمتها حتى ما كان منها خارج اللغة التي تشكل الحيز الداخلي للخطاب.⁽¹³⁾

ويرى كثير من النقاد أن التوجه السيميائي في تفسير مكونات النص ليس بجديد؛ فقد تنبه قداماء النقاد العرب إلى أهمية الإشارة غير اللغوية في أنظمة التواصل، ودرسوا الدلالات المسكوت عنها، خصوصا علماء أصول الفقه في دراستهم لمفهوم المخالفة والموافقة، أو ما يُعبر عنه بدليل الخطاب وفحوى الخطاب، وكذلك دلالات التنبيه والإيماء والإشارة، وذلك بُغية استخراج الأحكام

الشرعية غير المنصوص عليها في الكتاب والسنة⁽¹⁴⁾، وكذلك علماء البلاغة حيث اعتبروا الإشارة الضمنية من أنواع البيان من حيث تلقي المعاني الخفية وشريكا للفظ، كما عبّر الجاحظ عن ذلك بقوله: "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تتوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط." ⁽¹⁵⁾، إلا أنها لم تبرز عندهم كمنهج قائم بذاته له آلياته وقواعده، ولم يظهر الاتجاه السيميائي بوصفه منهجا نقديا إلا مع الستينات وذلك بعدما أخذت البنيوية في الانحسار نتيجة انغلاقها على النص، والغائها لكل الملابس والسياقات المتصلة بفضائه الخارجي. ⁽¹⁶⁾

فالسيميائية تعتبر النص قطعة كتابية من إنتاج شخص أو أشخاص عند نقطة معينة من التاريخ الإنساني وفي صورة معينة من الخطاب، ويستمد معانيه من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستعملون الشفرات النحوية والدلالية، والثقافية المتاحة لهم⁽¹⁷⁾، فمن هذه النقطة أصبحت القراءة النقدية على ضوئه قراءة إنتاجية تحاول تقريب القراءة من الكتابة، فيصبح القارئ كاتباً ومنتجاً ثانياً للنص؛ لأن القراءة السيميولوجية تعتبر أن النص يحمل أسرار كثيرة تستقر القارئ لفك رموزه انطلاقاً من فهم العلاقة الموجودة بين الدال والمدلول وبين الحاضر والغائب فتبدأ عملية البحث عن المعنى الغائب انطلاقاً من دراسة الرموز التي تجعل الدلالة تتحرف باللغة الاصطلاحية إلى لغة ضمنية عميقة، فالمنهج السيميائي في قراءة النص الأدبي نجده ينبثق من النص نفسه ويتموقع فيه بوصفه شكلاً من أشكال التواصل يربط علاقة التفاعل بين النص والقارئ؛ لأن القارئ ينشط على مستوى استنتاج الدال النص مما يجعله يتفاعل مؤثراً في النص أو متأثراً به. ⁽¹⁸⁾

3. الاتجاهات التطبيقية في الممارسات النقدية السيميائية:

الاتجاه الأول: سيمياء "دي سوسير": وتعتبر البداية الحقيقية للسيميائية وتعتبر علماً للعلامات يدرس الدلائل داخل الحياة الاجتماعية والطبيعية

والعلامة عنده قائمة على الدال والمدلول مع إقصاء المرجع، والعلاقة الموجودة بينهما اعتباطية. (19) ومع أن المبنى الثنائي للعلامة عند دي سوسير وانغلاقها على نفسها بسبب إهمالها للمرجع، فقد أثرت المقاربة السيميولوجية بكثير من المصطلحات. (20).

الاتجاه الثاني: يرى أن دراسة الأنظمة الدالة تكون من خلال الظواهر الاجتماعية والثقافية الملازمة للنص، واختار هذا الاتجاه أكثر الدارسين مثل: رولان بارت و"بيير جيرو" و"غريماس"، ومن النقاد العرب: "محمد عزلم" و"عبد الكبير الخطيبي" وغيرهم، وقد ركز هؤلاء في أعمالهم النقدية على تطبيق مفاهيم اللسانيات في شكلها البنوي ووجهتها الدلالية الموصولة بالحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات، حيث يرى "بارت" أن النص الأدبي ليس نتاجاً بل هو إشارة إلى شيء يقع وراءه، لتصبح مهمة الناقد هي تفسير هذه الإشارة وتأويلها (21)، ومن الأمثلة التي يسوقها بارت، صورة الجندي الزنجي الذي يحيي العلم الفرنسي، ويقدم للصورة قراءتين: القراءة الأولى هي جندي فرنسي يؤدي تحية علم بلده، والثانية فرنسا إمبراطورية عظيمة يخدمها أبناؤها بغض النظر عن الجنس واللون ويقدمون لها الولاء من أجل رفعتها، والقراءة الثالثة؛ إنها دولة استعمارية توسعية تبني مجدها على اضطهاد الأقليات، وهذه الإشارات كلها تحيل إلى علاقات بين الدال والمدلول من وجهة نظر الظواهر الاجتماعية والثقافية الملازمة للنص، وهي بذلك ترفض المبدأ البنوي القاضي بإهمال هذه الجوانب.

الاتجاه الثالث: يرى أنها دراسة لأنظمة الاتصال عامة؛ اللغوية وغير اللغوية، ومن رواد هذا الاتجاه "جورج مونان" الذي يعرف السيميولوجيا بأنها العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات أو الرموز التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس، (22) وينظر هذا الاتجاه إلى الدليل على أنه أداة تواصلية

أي مقصدية إبلاغية، وهذا مفاده أن العلامة تتكون من ثلاثة عناصر: الدال والدليل والقصد والوظيفة.⁽²³⁾

الاتجاه الرابع: حاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين، أي بين الرمز اللغوي والرمز غير اللغوي بوصفهما عنصرين يتكاملان مع اللسانيات، على أساس أن دلالة الاتصال قائمة على نظرية إنتاج العلامة، والعلامة لا يمكن فصلها عن نظرية الشفرات التي هي أساس الدلالة، ومن أنصار هذا الاتجاه "جوليا كريستقا" ومن النقاد العرب "محمد مفتاح".

تقول جوليا كريستيفا "إن النص ليس نظاما لغويا كما يزعم البنيويون، أو كما يرغب الشكليون الروس، وإنما هو عدسة مقعرة لمعان ودلالات متغيرة ومتباينة ومعقدة في إطار أنظمة اجتماعية ودينية وسياسية سائدة"⁽²⁴⁾، ومعنى هذا أن مرجعية النص لا نهائية: لسانية، فلسفية، اجتماعية، دينية، نفسية.

أما في الوطن العربي، فقد انتقل المنهج السيميائي ودخل في الممارسات التحليلية النقدية للنصوص، وتأثر به مجموعة من النقاد، وأسهموا في إحداث حركة نقدية من خلال التنظير والتطبيق لآليات هذا النهج، وذلك منذ منتصف السبعينات، وبرز منهم: عبد الملك مرتاض وعبد الحميد بورايو ورشيد بن مالك من الجزائر، ومحمد مفتاح والسعيد بن كراد من المغرب، وعلي العشي وسمير المرزوقي من تونس، وعبد الله الغدامي في السعودية، ومحمد خير البقاعي وغيرهم كثير.

4. آليات تطبيق المنهج السيميائي: السيميائية تقوم على الهدم والبناء فهي تركز على خطوتين إجرائيتين وهما: التفكيك والتركيب قصد إعادة بناء النص من جديد وتحديد ثوابته البنيوية وترتكز على ثلاثة مبادئ أساسية، وهي:

1.5. التحليل المحايث: نقصد بالتحليل المحايث البحث عن الشروط الداخلية المتحركة في تكوين الدلالة وإقصاء المحيل الخارجي، وعليه فالمعنى

يجب أن ينظر إليه على أنه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرابطة بين العناصر.

2.5. التحليل البنيوي: لأن إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام متين من العلاقات، والتحليل البنيوي لا يهدف إلى وصف المعنى نفسه وإنما شكله.

3.5. تحليل الخطاب: وذلك ببناء نظام لإنتاج الأقوال والنصوص وهو ما يسمى بالقدرة الخطابية.

ويمكن أن يتم ذلك بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة القراءة، وهي تختلف عن القراءة العادية بانفتاحها الدائم، ويرجع هذا الانفتاح إلى أن النص يعني شيئاً على مستويات عديدة في المكان وفي لحظات عديدة في الزمان لذا تختلف كل قراءة عن أخرى.

المرحلة الثانية: مرحلة الانتقال من المادية إلى المعنى، وعلى هذا يمكن القول أن معنى الكلمات التي نجدها في المعاجم ليس دائماً نفس معنى الكلمات الذي نجده في التواصل العقلي، وعلم العلامات لا يهتم إلا بالمعنى الأخير وهذا يعني أنه يمكن أن يكون للدال الواحد مدلولات متعددة وأن كل قراءة جديدة يمكن أن تكون تفسيراً مختلفاً. (25)

5. إمكانية تطبيق المنهج السيميائي على النصوص الأدبية العربية:

إن التحليل السيميائي ليس وليداً للبيئة العربية، وإنما انتقل إليها عن طريق الترجمة والمثاقفة، وكذلك من خلال البعثات العلمية، حيث درسه رواده في الوطن العربي على أساتذة السيميولوجيا في الجامعات الغربية، ولذلك تعترض الدارس أو الناقد الذي يريد ممارسة النقد الأدبي وفق المنهج السيميائي وتطبيقه على النصوص العربية عدة عقبات، تجعل العملية النقدية متعبة ومحفوفة بالمخاطر والوقوع في الانحرافات المنهجية، من أبرز تلك العقبات:

1.6. إشكالية المصطلح: نظرا لغرابة الموضوع على الثقافة الغربية النقدية

المعاصرة فإننا نلاحظ الاختلاف في ترجمة المصطلحات المتعلقة بحقل السيميائي، بداية من مصطلح "السيميائية" ذاته، إذ تعددت الترجمات "كالعلاماتية، الإشارتية، علم العلامات..." وغيرها، يقول آراء عابد الجرمانى: "لا تتفصل إشكاليات استقبال السيميائي عن إشكاليات استقبال المناهج النقدية الأخرى... ولا سيما تداخل مصطلحاتها ومفاهيمها، وتشابكها مع مناهج أخرى"⁽²⁶⁾ والسبب في هذا الاختلاف هو أن وضع المصطلحات السيميائية في العالم العربي يختلف تماما عما عليه في أوروبا، فإنه بسبب التضارب الموجود في المصطلحات المستعملة لم يرق إلى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الإجرائية الخاصة به.⁽²⁷⁾ وهذه الإشكالية لا تختص بالمنهج السيميائي، بل تعم مختلف المناهج الأخرى الوافدة.

2.6. إشكالية التنظير: وقد اعترها كثير من الغموض، وهي في الحقيقة

فرع عن إشكالية المصطلح، فكثيرا ما نجد الخلط بين المفاهيم، وأحيانا انفلاتا في التقعيد نتيجة خلل يحدثه تداخل بالمصطلحات، ولذلك عدة أسباب، منها:

- إشكالية نقل مصطلح من اللغات الأجنبية، حيث لا نجد تعريفا دقيقا له متفق عليه بين النقاد العرب؛

- اختلاف التكوين الفكري والعلمي لعدد من المترجمين للمصطلح؛

- أن الترجمة أحيانا تتم بصفة غير مباشرة بل بواسطة لغة أخرى.⁽²⁸⁾

3.6. إشكالية التطبيق:

نلاحظ عند دراستنا للنماذج المدروسة سيميائيا اختلافا كبيرا بين المحللين السيميائيين فيما بينهم، وذلك لأن استخدامهم للأدوات الإجرائية متباين، فضلا عن المستوى العلمي والتجريبي لدى كل واحد، وهذا يرجع أيضا في عمومته إلى إشكالية التنظير، وكذا تعدد المفاهيم المصطلحية.

وللوقوف على جانب من أزمة التطبيق لهذا المنهج نعرض على ذكر بعض التجارب المشهورة لبعض النقاد العرب الذين خاضوا غمار هذه الدراسات النقدية، وحاولوا تطبيق المنهج السيميائي، ومنهم:

1.3.6. عبد الملك مرتاض: يعد من النقاد الذين اعتنوا بالمنهج النقدية الحديثة وخصوصا السيميائية حيث أسهم بعدة أبحاث نظرية وأخرى تطبيقية متعلقة بالسيميائية على غرار: "التحليل السيميائي للخطاب الشعري" الذي خصص فيه فصلا عنوانه "التحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناسيل ابنة الجلي لبدري شاكر السياب"، فنجدته يقول: "قصيدة "شناسيل ابنة الجلي" التي فرض علينا حجمها وشكلها معا أن نمارس عليها التحليل السيميائي (السيميائي لدينا يتعلق بالنظرية، والسيميائياتي يتعلق بالتطبيق ضمن إجراءات السيميائية الذي هو في حد ذاته اجتزأنا منه بالقراءة على سبيل التشاكل واللاتشاكل (التباين)، والتقاين أو التماثل، والقرينة والرمز، والحيز..."⁽²⁹⁾، ومع ذلك فنجدته يعترف بأن المنهج السيميائي غير كفيل بذلك فيقول: "وما دمنا بصدد كتابة مقدمة منهجية لإشكالية القراءة السيميائية فإنه قد يكون من الحق علينا ولنا معا أن نحدد المنهج الذي ننهجه في تحليل أي نص أدبي ندفع إلى قراءته... إنه لا يوجد منهج كامل مثالي لا يأتيه الضعف ولا النقص من بين يديه ولا من خلفه، وإذا فمن التعصب -والتعصب سلوك غير علمي ولا أخلاقي- التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنه هو وحده ولا منهج آخر معه جدير أن يتبع."⁽³⁰⁾

كما نجد في ثنايا تحليله استخدام عدة مصطلحات ذكر أنه الوحيد الذي يستخدمها، فيقول مثلا: "وقد اصطنعنا مصطلح "التقاين" التماثل لأول مرة في العربية، وقسناه على التشاكل على أساس أن النص الشعري في معظم الأطوار يمنحنا مظاهر مماثلية إقونية (iconique)." ⁽³¹⁾

2.3.6. عبد الحميد بورايو: ويعد أيضا من النقاد الذين شاركوا في المجال النقدي السيميائي وركز في دراساته على الأدب الشعبي، وسعى إلى تطبيقه على هذه النصوص، ويرى أن الدراسة النقدية السيميائية لنص أدبي - وخاصة النص السردي - لا يمكن أن نحصرها بدراسته داخليا فقط، إذ لا بد من الأخذ بالسياق والظروف المحيطة التي تُسهم في بنائه، وظهرت جهوده النظرية من خلال الأعمال النقدية مثل مقاله: "السردية والنظرية السيميائية"، وكذلك ترجمته لكتاب "النظرية السيميائية مسار التوليد الدلالي" لـ "غريماس وكورتيس"، ويقدم في هذا الكتاب مبادئ السيميائيات الشكلانية من وجهة نظر النقاد الفرنسيين ويصطلح على تسميتها بـ "مدرسة باريس" ⁽³²⁾، كما ظهر جهده في الجانب التطبيقي من خلال دراسته السيميائية لقصة "الحمامة المطوقة"، وقصة "دفاتر الطفولة" لعلي بوكحال.

3.3.6. محمد مفتاح: واحد من النقاد الذين اتبعوا المصطلحات السيميائية من أوروبا وأمريكا، ودعا إلى الحرص على نقل المصطلحات بأصولها ليكون نقلها نقلا سليما من بيئتها إلى البيئة العربية، وحتى لا تؤثر سلبا على فهم واستيعاب المتلقي، واعتمد على علماء اللسانيات، واستفاد من أفكار "غريماس" و"جيرار جنييت" كما تأثر بالشكلانيين الروس ⁽³³⁾. ورغم جهوده في الدراسات السيميائية إلا أنه لم يتخلص من تبعات اختلاف المصطلح فنجده يضع مقابلا للمصطلح ("sémiotics") السيميائية تارة والسيميوطيقا تارة أخرى. ⁽³⁴⁾

4.3.6. صلاح فضل: يعد من أبرز رواد النظرية السيميائية، وبدأت جهوده النظرية في هذا المضمار بكتابه "نظرية البنائية في النقد الأدبي" سنة 1977 م، وهو كتاب تعريفى خصصه لشرح مبادئ البنيوية وتفرعاتها السيميائية، كما ألف كتابا آخر بعنوان "مناهج النقد المعاصر" خصص فيه فصلا للمنهج السيميولوجي، تحدث فيه عن النقاد والباحثين العرب وتطرق لإشكالية المصطلح. ⁽³⁵⁾

6. خاتمة: لقد شكلت المناهج النقدية الحديثة أزمة نقدية عويصة استصعب مشاهير النقاد الخروج منها، وهذا لأن هذه المناهج الغربية تبقى غريبة عن ثقافتنا، وعن أدبنا وإبداعاتنا جملة وتفصيلاً، ولكن مع ذلك لا ننفي جهود بعض النقاد الذين حاولوا إيجاد حلول نقدية وطوروا خطاباً نقدياً عربياً حديثاً يعتمد على التركيب بين التيارات المختلفة، مع الرجوع إلى الثقافة العربية، فأثمرت عدة محاولات من أجل التأسيس للنقد السيميائي العربي.

فإذا كان أي منهج نقدي لا يستطيع أن يستوعب الظاهرة الأدبية كلها، كان لزاماً على النقاد أن يجتهدوا في إيجاد حلول عملية من شأنها أن تستوعب أكبر قدر ممكن من فهم النص الأدبي.

هذا، والملاحظ أن سعي نقادنا العرب وجريهم وراء المناهج النقدية الغربية جرّهم إلى تناسي الإبداع النقدي المنطلق من واقع ثقافتنا وطبيعة نصوصنا العربية التي لها خصائصها ومقوماتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه:

لماذا لا نعيد الاعتبار للأدب والنقد العربي الأصيل الذي أسس له علماءنا عبر قرون من البحث والتطوير؟

ولماذا لا نحاول إيجاد نقد أدبي عربي ينطلق من نصوص الأدب العربي ويضع لنفسه الآليات والمناهج المناسبة دون السعي وراء استيراد المناهج الغربية وفرضها على نصوصنا الأدبية؛ لأن تلك المناهج نشأت في ظل إيديولوجيات معينة كانت مناسبة لأدبهم في تلك الفترات، وحتى هم أنفسهم تخلوا عنها لما رأوا عجزها وقصورها عن دراسة الأدب من مختلف جوانبه؟

هذه التساؤلات وغيرها كثيراً ما سمعناها من أساتذتنا في الجامعة، وكثيراً ما طرحناها عليهم، فلم نجد لها لحد الساعة جواباً يشفي غليلاً أو يروي غليلاً، فبعضهم يرجع الأمر إلى أسباب سياسية، وبعضهم إلى إشكالية ثقافية حضارية، وبعضهم إلى أزمة نفسية مبنية على الانبهار بكل ما هو غربي.

وفي نهاية الأمر فإن المنهج السيميائي في النقد العربي، كغيره من المناهج الغربية الأخرى يظل الطلاب عند محاولة التعامل معه تائهين بين التقعيد النظري والواقع التطبيقي الذي تاه فيه حتى المشاهير، إلى حين إيجاد نقد عربي حديث يلبي حاجة النص العربي.

الهوامش:

- (1) أحمد بن فارس أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ)، ج5 ص467. وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1 1421هـ)، ج6 ص316.
- (2) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، (ط4، 1983م) ص8.
- (3) أحمد بن فارس أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، ج5 ص361. وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج4 ص171.
- (4) ينظر: علي علي صبح، البحث الأدبي بين النظر والتطبيق، مكتبة مدرسة الفقاهة (دط دت)، ص73.
- (5) أحمد بن فارس أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، ج5 ص420.
- (6) للتوسع أكثر في الموضوع ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسر للنشر والتوزيع، (ط1، 2007م)، ص49.
- (7) ينظر: محمد بن عبد الله بلعغير، البنيوية النشأة والمفهوم، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية، العدد: 15، (سبتمبر 2015).
- (8) محمد صديق خان، أبجد العلوم، دار ابن حزم، (ط1، 1423 هـ)، ص421.
- (9) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، (ط1، 1429 هـ) ج2 ص1140.

(10) Dictionnaire Etymologique Du Français, Dictionnaire le Robert, paris, (1994),p 506.

(11) عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع القاهرة (ط1، 2003م)، ص18.

(12) يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (ط1، 2008م)، ص 240.

(13) يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص 93.

(14) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى في أصول الفقه، تحقيق: محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، (ط1، 1413هـ)، ص 263.

(15) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (1423هـ) ج1 ص83.

(16) يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص 97.

(17) ينظر: يوسف الأطرش: المقاربة السيميائية في قراءة النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، (نوفمبر 2000م) ص 144.

(18) ينظر: المرجع نفسه، ص 144.

(19) ينظر: لخضر العرابي، المدارس النقدية المعاصرة، ص 154.

(20) ينظر: جميل حمداوي، السيميولوجيا والعنونة، عالم الفكر، ص 89.

(21) ينظر: محمد عزام، النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب، ص 2.

(22) ينظر: باية سيفون، محاضرات في السيميولوجيا، ص: 3.

(23) ينظر: لخضر العرابي، المدارس النقدية المعاصرة، ص 155.

(24) حوار مع جوليا كريستيفا، مجلة الفكر العربي، عدد: 18، ص: 122.

(25) على زغينة، مناهج التحليل السيميائي، ص: 135.

(26) ينظر: آراء عابد الجرمان، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، دار الأمان منشورات الاختلاف، لبنان، ص: 71.

(27) ينظر: محمد عزام، النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب، ص 2.

(28) مستفادة من ملاحظات ومناقشات الأساتذة.

- (29) عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (دط، 200م)، ص:16.
- (30) المرجع السابق ص:13.
- (31) المرجع السابق ص:16.
- (32) ينظر: غريماس وكورتيس، النظرية السيميائية مسار التوليد الدلالي ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار التنوير، الجزائر، ط1، (2013م)، ص:19.
- (33) ينظر: مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيميائي (الاشكالية والأصول والامتداد)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، (2005م)، ص 133.
- (34) ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، (ط 4، 2005).
- (35) ينظر: صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، (ط1، 1419هـ). وصلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، المغرب، (ط2، 2013م).